الفصل الرابع

وحـى يوحـى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

[سورة القدر – الآيات ١ : ٥]

(١)

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان.

وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان.

وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان.

وأنزل الزبور لثمانى عشرة خلت من رمضان.

وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان.

خرج محمد من غار حراء، بدأ يخطو بين الصخور فى حذر، كانت الشمس فى بدء إشراقها، حانية بدفئها، فالغار رطب بطبيعته.

راحت الأصوات تتناثر من حوله محيية فى مودة:

– السلام عليك يا رسول الله.

هو كثيرا ما سمع هذه التحية أثناء سيره بالخلاء، هى أصوات تقلقه أكثر مما تسعده، لأنه يخاف خداع إبليس، ويكره أن يكون له قرينًا، لكن النور الذى يفد ليضفى جوا من الطمأنينة والراحة على نفسه وهو منفرد فى الغار، محال أن يكون من فعل الشياطين. فالشيطان لا يفد على الإنسان إلا بالظلمة والشقاء.

وما تحدث بمخاوفه إلى زوجته خديجة، طمأنته فالشياطين لا سلطان لها إلا على الفاسدين، وهو خيار من خيار.

رأى أثناء سيره صبيا نحيلا، على مبعدة منه، يهش غنيماته بعصا فى يده، ذكره بصباه أيام أن كان يرعى الغنم لعمه أبى طالب ولأثرياء قريش لقاء أجر قليل.

- كيف حال صاحبى؟.

التفت خلفه، فوجد عبد الكعبة هو من خاطبه، كان يتقدم قافلة قد عادت بتجارتها من اليمن، رد تحيته بأحسن منها، وتقدم أبو بكر، وتصافحا فى شوق، ثم سارا جنبا إلى جنب إلى الكعبة فطافا بها، واتجه عبد الكعبة إلى أصنامهم، بينما انصرف محمد إلى داره، هام فى سيره، فهو سيرى زوجته وبناته، ويمكث بينهم أياما ليطمئن على أحوالهم، ثم يتزود بما يقيم أوده، ليعاود من جديد الصعود إلى جبل حراء.

٢

منع إبليس من الصعود إلى السماوات العلا، وقذف بالشهب، صرخ إبليس ملتاثا وهو يهوى من السماء:

- واسلطانيه.

فهذا يعنى زوال ملكه، وانتهاء تسلطه على تلك الملايين من الإنس، فإنه يفتنهم ويرهبهم بالإيحاء إليهم بأنه يعلم مالا يعلمون، وأن الغيب الذى يقلقهم ويحيرهم هو له كتاب مفتوح، وإبليس لا علم له إلا من خلال تسمعه لأخبار السماء التى تتحدث بها الملائكة، فإذا منع عن الاستماع فمن أين له ما سيفتنهم به؟.

يا ويل أياميه، ويا لضيعة سلطانيه.

خر إبليس يمرغ وجهه فى التراب أسفا ونكدا.

تخسفت به الأرض..

هوى فى طين المستنقعات..

تلاطم مع الأمواج..

ثم غاص حتى القاع فى البحار والمحيطات..

ليهرب من السؤال الذى يلح عليه، ويكاد يزهق أنفاسه، ويتمنى أن يطرده، وألا يناقشه حتى لا يواجه بالحقيقة، ولكن السؤال ظل يلح ويصك فكره بعنف، بعد كل ذاك الهروب الذى قاساه ليفلت من مواجهته:

- أيكون هو المنتظر؟.

أيكون محمدًا هو ذاك الذى عصمه الله،فلم أستطع أن أجد لى سبيلا عليه، هو النبى المنتظر الذى أتى زمانه؟.

صرخ إبليس:

- والله لا أتركه، ولأقعدن له كل مقعد، ولأتربصن به كل متربص.

قال نفر مؤمن من الجن:

– وربنا إنك لن تستطيع له شرا، فإن الله عاصمه، وهو نبى، كما عصمه وهو صبى.

قال إبليس وقد فاحت منه رائحة الكراهية عفنة خبيثة:

– إذن سوف أفسد عليه قومه، ولأجعلن أقرب الناس إليه أكثرهم عداوة له، ولأجعلن دعوته نارا تأكل قبائل قريش.

قال النفر من الجن المؤمن:

– ولكنه دعوة أبيه إبراهيم.

أذهل قول الجنى إبليس، أعاد صورة إبراهيم، وولده إسماعيل وهما يتمان بناء الكعبة إلى ذهنه، سمع صوت الخليل وهو يرفع كفيه بالضراعة إلى السماء يدعو ربه قائلا: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ١٢٩].

قال إبليس مغتاظا:

– ولكنى محوت بشارته من التوراة والإنجيل فما تركت كلمة فيها ذكر لأحمد.

قال الجن المؤمن:

– ليس من كل الكتب، ولا من كل العقول: مُحِيَت، والله مبلغ رسالته، فعال لما يريد.

تناثرت من إبليس ملايين الذرات بالحقد تطوف فى جنون، ثم خمدت مرددة فى رهبة وخضوع وخشوع:

– حقا الله فعال لما يريد.

ثم عادت الذرات تلتئم لتعود إلى طبيعتها الخبيثة، وقال اللعين:

– ولكنى عاهدت ربى أنى مفسد آدم و ذريته، فلأقعدن لمحمد فى كل مجلس، أصلصل فى الآذان حتى لا تسمع، وأوسوس فى النفوس حتى لا تخشع، ولأغوين به السفهاء حتى يمل ولى يخضع، فإن كان محمد معصوما، فإن من حوله ليسوا معصومين.

هرول زيد بن عمرو بن نفيل، يبحث عن أول قافلة تعود من الشام إلى مكة ليعود معها، وحين عرف بأن أمامه أياما كثيرات حتى يستطيع العودة، قرر أن لا ينتظر ويعود وحده، فلم يكن ليطيق أن ينتظر لحظة بعد أن قال له أحد الرهبان:

– إن الدين الذى تبحث عنه هو دين الإسلام، وما أنت بواجده هنا بالشام، ولكنك ستجده فى قريتك حيث سيبعث نبى منكم يدعو إلى دين إبراهيم، فالحق به فإنه مبعوث الآن، وهذا زمانه.

ودنت المسافات واقتربت، وتأججت النفس باللهفة والشوق إلى رؤية النبى المنتظر، وهانت آلام كل مشقة على الجسد المنهك بالأسفار والسنين، فها هى ذى نهاية البحث عن دين يرتاح له القلب، تقترب خاتمتها، رفع زيد يديه إلى السماء، شاكرا لله أن أحياه حتى يشهد مشرق الإسلام.

لكـن زيدا لم يصـل إلى مكة، ولم ير النبى الخاتم، فلقد قتله أنصـار إبليس ظلما، ومات باحثا من الباحثين عن سبيل إلى الله.

هكذا شاء الله: أن يكون زيد علامة على الطريق، قبل أن يدرك الطريق.

(٣)

المكان: غار حراء.

الوقت: ليـل.

اليـوم: الاثنين.

الشهر: رمضان.

السنة: الثانية عشرة قبل الهجرة.

القمر كعادته مع أواخر الشـهور العربية، يظهر متألقا فى نهاية الليل، ثم يغـادر السـماء مسـرعا ويرحـل، لتغرق الصحراء فى ظلمة موحشـة صامتة لا يقطـع صمتها غير غثاء غنيمـة ضالة، أو عـواء ذئـب جائـع، ولا يعكر ظلامها إلا نجم عـليل، يقـاوم كسـف السـحاب التى تكتم أنفاسـه فيضعف ويضعف حتى يصير شاحبا مصفرا، أو شهاب يمرق متوهجا لينطفئ للحظته.

فى سموق، كان يرتفع جبـل حـراء، شـامخـا فى تفوق مهيب على كل ما حوله من أكمة وجبال، وعنـد النصـف الأخير من قامته بدا غار حراء كفـوهة تنادى مـن يراها أن يقدم على دخـولها فتـأخذه إلى عـالم المجهول.

داخل الغار كان محمد منحنيا حتى لا ترتطم رأسه بجدره وبسقفه المنخفض، يجمع بقايا ما صحبه معه من طعام وغطاء، مستعدا للرحيل عائدا إلى داره، بعد أن قارب الليل على الانتهاء.

لكن النور فاجأه، نور كأنه شلالات فضة مذابة، أو توهجات أشعة ماسات بيض سقطت عليها أشعة قوية فجعلتها تتوهج، هو نـور ليس كمثلـه نـور الثريا، أو نور القمر فى قمة الاكتمال، أو نور الشـمس لحظة الظهيرة، فهو أعظم من هذا وذاك، وأشد وأقوى، فهو نور ليس كمثله نور.

بـدا الأمـر وكأنه حلم يقظة، فلقد وجد محمد بدنه يذوب ويتلاشـى، فيصبح جزءا من ذرات ذاك النور، متخلصا من قيد جسـده، متسـاميا، محلقا، يطوف فى انطلاق مبهر بـلا موانع أو قيود مادية تعوق حركته.

كان منتشـيا بما يحدث له، مسـتريحا لحدوثه، مشوقا للاستزادة والاكتشاف، فلا أرض ولا سماء، ولا حدود تحدد الأشـياء وتجسـدها، مثل تلك التى تحيط بالأحياء، وتحد من قدراتهم؛ بعد أن أصبح الوجود نورا ليس كمثله شىء.

تبدى له ملك.

كان يحمل كتابا فى نمط من ديباج.

قال لمحمد والكتاب مفتوح:

– اقـرأ.

وتستبد الحيرة بنفس محمد، ويرد قائلا:

– ما أنا بقارئ؟!.

ويضم الملك محمدا إليه ضما شـديدا، يزداد مع مرور اللحظات شـدة فوق شـدة، حتى لتكاد النفس تتبدد، ويكاد الوجود أن ينتهى.

هنا يخفف الملك من غطه، ثم يترك النفس حرة، فتنساب الراحة بالخدر تهز المشاعر؛ لكن الأمر لا يطول فما هى إلا لحظات حتى يعود الملك إلى قوله لمحمد:

– اقـرأ.

وتمتلئ النفس بالخـوف، خشية العـودة إلى الغط وهوله، ويتساءل محمد فى رجاء:

– ما أنا بقارئ؟!.

ويعـاود الملك غط النفس القلقة الباحثة؛ ويشـتد عليها، ثـم يطلقها بعد أن أذاقها المزيد من الرهق؛ لكن مشاعر الخدر والراحة، لا تعاود النفس، فلقد حلت مكانها مشاعر القلق والخشية من معاودة الغط؛ وسرعان ما تحقق ما توقعت، فلقد عاود الملك القول للمرة الثالثة:

– اقـرأ.

ويكاد صوت محمد أن يختنق من الحزن والخزى، وهو يعلن الحقيقة للملك:

– ما أنا بقارئ؛ فما قرأت كتابا قط، وما أحسنه، وما أقرأ، وما أكتب!!.

وفى اسـتسـلام كامل ينتظر محمد أن يعاود الملك غطه، لكن الملك لا يضمه، ولا يشـتد عليه؛ ولكنه قـرأ فى خشـوع أوبت معـه ذرات النور، فى ترديد رائع شمل الوجـود جميعه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [سورة العلق – الآيات ١: ٥].

.. وكأنه ما كان قـولا قـيل، فالكلمات قد انسابت ونقشت نقشا على جدار قلب محمد، بل سرت فى دمه، وامتزجت بروحه فى تآلف كامل، حتى إن محمدا يستطيع أن يقرأها، بل ها هو ذا يتلو ما سمع من الملك. ودموعه تنسـاب فى خشوع ورهبة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [سورة العلق – الآيات ١: ٥].

ومـا إن انتهى من تلاوته حتى أجهش بالبكاء، وراح جسـده ينتفـض، وبقى على هذا الحال زمنا لا يستطيع أن يدرك مدته طالت أو قصرت؛ ولما هدأ رفع يده فوجد له يدا، ورفع بصره فأبصر صخـور غار حراء تحيط به. ووجد واقعه الذى كان عليه من قبل محيطا به؛ فلا نور هناك، ولا ملك.

تملك نفسـه حزن شـديد، فلقد ذهب عنه ذاك العالم النورانى، وكأنه ما حدث، وكأنه ما سمع، وما تعلم؛ وكأن ما حدث وهم من وهم!.

ولكـن من المحال أن يكـون ذلك كذلك، فها هى ذى الكلمات لا تـزال نابضة فى قلبه، ماثلة فى أذنيه، ثابتة فى عقله.

فسبحان القادر الذى علم الأمى أن يقرأ.

سبحان الله الذى علم الإنسان ما لم يعلم.

سبحان من قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٨].

٤

نهـض مرهقا تعبا، غادر الغار، اتخذ طريقه نازلا الجبل، وشمس النهار ترسـم على الصخور ظلالا متأرجحة لخطوط مبهمة.

لم يسـتطع أن يتجـه إلى الكعبة ليطوف بها، كما اعتاد بعـد كل انتهـاء من تحنث، بل اتجه إلى داره، وهو يدعو ربه أن يتمكن من الوصول إليها قبل أن يسقط إعياء ورهقا.

اسـتقبلته خديجة وقلبها منفطر عليه، فلقد ذهبت بها الهواجس كل مذهب، بعد أن تأخر عليها، وهـو الـذى لم يخلفها وعدا ولا موعدا، وزاد من قلقها أن رسـلها الذين بعثتهم يتقصون عن سـبب تأخره، عادوا إليها ليبلغوها أنهم لم يعثروا عليه فى مكة أو فى شعابها.

كان يقف أمامها ذاهلا، يعيش بروحه بعيدا عن الموقـف الذى تعيشه هى، حقيقة أنه ماثل أمامها بجسـده الذى راح يرتعد وينتفض بالحمى، ويتفصد منه العرق، من روع ما رأى؛ لكن النفس مازالت واقعة فى إسـار الموقف الذى عاشـت فيه، وتوحـدت خلاله مع دفقات النور، ونورانية الكلمات التى ألقاها عليه الملك، وملكت عليه كل كيانه.

أخذت خديجة تسـأله فى قلق عن ما أصابه، وعن السـبب الذى أوصلـه إلى تلك الحال التى تراه عليها، وهو لا يجيبها بشىء، ثم وفى صعوبة بالغـة تمتم فى رجـاء:

- دثرونى.. دثرونى.

أسـرعت بـه إلى حيث اعتـاد أن ينـام، فأنامته، ودثـرته بالأغطية، ثم انحنـت لهفى عليه تكرر تساؤلها الملتاع عما به راجية باكية.

وامتـلأ فـؤاده عطفا عليها، فـراح يجاهد رهقه، وبعد جهد جهيد، قـص عليها ما حدث وما كان فى كلمات متقطعة مرتعشـة، والدمع ينسـاب مدرارا، ثم أفاض بخوفه من أن يكون ما حدث من فعل إبليس، الذى سيطر على أهله واستعبدهم بالسحر وبالشعر، ثم أضاف قائلا:

- لقد خشيت على نفسى؟.

لكن خديجة نفت مظنته، وأكدت له أن ما حدث محال أن يكون من فعل الشـيطان، فما رآه نور،

ومـا سمعـه تمجيد للخالق العظيم، وأمر بالعلم، وإبليس لا يريد بالبشـر خيرا، ولا يذكرهم إلا بالدنس والفساد، ولا يبتغي لعقولهـم إلا أن تتسربل فى ظلمات الجهل، وظلمة الدنايا، ثم أردفت مؤكدة:

– كلا.. ورب الكعبة إن الله لن يخزيك أبدا، إنك لتصل الرحـم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.

اطمأن إلى كلماتها، هدأت مخاوفه قليلا، فاستطاع النوم أن يأخذه إلى عالم الراحة.

تأملته خديجة طويلا، ونفسـها تكاد تتفجر خشـية عليه، على رغم يقينها مما قالته لـه؛ ولكن لم لا يساورها الشك: فهى زوجتـه، وقـد تكون منحازة إليه، وهى تحبه كل الحب، بل هى مفتونة بـه، مقدرة له تلك العشرة الطيبة التى عاشرها.

واشـتدت بها الهواجس، فأسرعت ترتدى ملابسـها، وتصحب أحد غلمانها، وتسعى إلى دار ابن عمهـا ورقة بن نوفل، وبصيص من أمل يحول بينها و بين أن تنهار فرقا على الحبيب، بعد أن تسللت إلى نفسها مخاوفه التى أفصح بها إليها، فزلزلت يقينها، وأوشكت أن تنزل بها الرعب.

استأذن لها الغلام، واستقبلها الشيخ الفانى بالترحاب، وهو يقول مهللا:

– والله يا ابنة العم ما جاء بِك الساعة إلى إلا أمر جلل.

حدثته خديجة بما رأت عليه محمدا، وبكل ما سمعت منه.

استمع إليها ورقة بكل جوارحه، وكل كلمة خطها من إنجيل وتوراة تحدثت عن أحمد المنتظر تتوارد على ذهنه، حقيقة أن بصره الآن قد كل وبات أعمى، لكن بصيرته أصبحت تضىء له الطريق بالحقيقة، هتف مهللا، وقد أدرك أنه قد تحقق المبعث للنبى الخاتم:

– قدوس.. قدوس، والذى نفسى بيده، إن ما رأى محمد هو الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة.

٥

خرجت خديجة من دار ورقة بن نوفل، وقد هدأت نفسها، واطمأن بالها إلى كون سعيها مع محمد، إنمـا كان سـعيا مع نبى الله الـذى سمعت ابن عمها يتحدث عنه كثيرا، منـذ اعتنق دين النصرانية، وكتب الإنجيل والتوراة بيده، وكان يؤكد أن هناك نبيا قد أظلهم زمانه اسمه أحمد، وأن عيسـى عليه السلام قد بشر به، وأعلن أنه التام للرسل، وأنه الخـاتم.

واسـتعادت ذاكرتها ما قاله لها غلامها ميسـرة منذ سـنوات وسـنوات، عندما أرسلتـه مع محمد فـى تجـارتهما الأولى إلى الشـام، وكيف أن الراهـب الذى اعتاد أن يذهب إليه ميسـرة قد لاحظ أن الغمام يظلل محمدا، ليمنع عنه لهيب الشـمس من دون كل رجال القافلة، لذلك راح يسـأل ميسرة عن صاحبه..

كيف يتصرف؟.. ومن أى قبائل قريش هو؟..

وما اسمه؟.. وما خلقه؟.

عشرات من الأسئلة سألها الراهب لميسرة، ثم رجاه أن يصحب محمدا إلى صومعته، فلما ذهب معه إلى الراهب وجدوه قد أعد لهم طعاما، وهو ما لم يفعله من قبل لميسرة طيلة زياراته السابقة، فلما فرغا من الطعام أخذ يسأل محمدا فى شتى الأمور، وهو لا يكف عن البحث بعينيه الكليلتين عن علامات معينة. فيطيل النظر إلى يديه تارة، وتارة إلى عنقه وما انكشف من ظهره، وحين أرادا أن ينصرفا استبقى ميسرة، وقال له:

– إن صاحبك هو النبى المنتظر، فأكتم الأمر عنه، ولا تكلم فيه أحدا، إلى أن يظهره الله.

وإذا لم تصدق نبوءة الكاهن، ولم يكن ورقة صادقا فى كلامه، أليس خلق محمد النبيل، واختلافه الشديد عن أقرانه، وبعده عن الخطايا وأكل السحت، وكراهيته للكهان والرهبان من الذين يعملون بالسحر فأصبحوا بسحرهم أولياء لقريش، وهجره لمجالس الشعر والفجور وعبادة الأصنام، ووصله لرحمه، وحدبه على أهله، وإكرامه للضيف، وإعانته للضعيف، وكل ذاك التواضع الذى يلازمه بلا افتعال حتى لتراه بين خدمها وعبيدها فلا تكاد تدرك من السيد ومن المسود.. أليس هذا جميعه كفيلا بأن يجعله هو النبى المنتظر؟!.

وحين دخلت دارها، لم تستطع أن تمنع تنهيدة خرجت مع تمتمتها لنفسها:

– حقا يا محمد إن كل ما فيك محمود، وإنه لأنت أحمد.

تسللت إلى مخدعه، وجدته مستغرقا فى النوم، وقد زايلته الرجفة التى كانت تهز جسده هزا، بينما تألق جبينه بحبات العرق، مدت يدها فى حنان، ومسحتها بطرف ثوبها، وهى تهمس لنفسها:

– ورب الكعبة إنى لأرجو يا محمد أن تكون أنت نبى هذه الأمة، لتكون رحمة بالناس، كما كنت رحمة لى.

٦

استيقظ محمد من نومه مرهقا غاية الإرهاق، وقد بدأت الشمس تأخذ طريقها نحو المغيب، وذكريات تلك اللحظات النورانية التى عاشها لم تغادره بعد، جلس فى فراشه متأهبا للنهوض، أقبلت عليه خديجة تبشره بما قاله لها ورقة بن نوفل، وتشهده بأنه نبى الله، فلم تجد منه اهتماما بما قالت، أو التفاتا إليه، فهو لم يزل فى نورانية اللحظات الماضيات، غير راغب فى الدنيا وما عليها، والشك عنده أقوى من اليقين بالنسبة لما حدث فى الغار، وهو محق فى شكه؛ فكل ما يحيط بالحياة حوله من سحر وشعوذة، جعل الحق يختلط بالباطل، والحقيقة تتوه أمام الوهم؛ حتى أصبح الشرك جزءا من عبادة القرشيين.

تحامل على نفسه لينهض، قالت له خديجة وهو يأخذ طريقه خارجا:

– ألا تأكل؟!.

قال وهو ينصرف:

– ما بى حاجة إلى طعام..

لم تعجب لقوله، فمحمد قليل الميل إلى الطعام، دائم الزهد فيه، هو ليس كغيره من أصحاب البطون المدلاة، بل هو كثير الصيام: فلم لا يكون قد بدأ يومه صائما؟.

اتجه إلى الكعبة ليطوف بها، كان مشتت الفكر، مشغولا بما أحيط به من أحداث، عازفا عن كل شيء، غير آبه بما يحيط به من بشر، إلى أن وجد يدا تحط على كتفه فانتبه ملتفتا، فواجه ورقة بن نوفل يتحسسه سائلا:

– ألست محمدا؟.

قال عازفا عن الحديث:

– نعم إننى هو.

قال ورقة فى لهفة هامسا:

– ألا تحدثنى يا ابن أخى بما جاءك؟.

تفجرت الحيرة كلاما متصلا: عما جرى، وعما سمع؛ وأفاض بمخاوفه التى تؤرقه، واستمع إليه ورقة بكل جوارحه، وهو يسترجع ما قرأ فى سفر أشعياء النبى: «أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة».

وها هو ذا قد جاء محمدا من يقول له: «اقرأ».

لم يملك ورقة أمام تدفق عواطفه بالفرحة والبشر، إلا أن ينحنى فيقبل يافوخ محمد، وهو يقول:

– والذى نفس ورقة بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى من قبل: ولتكذبنك ولتؤذينك ولتقاتلنك ولتخرجنك، ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصرا عظيما، فأبشر يا ابن أخى فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم.

تساءل محمد جزعا:

– أو مخرجى هم؟!.

قال ورقة مؤكدا:

– نعم فلم يأت أحد بمثل ما جاءك إلا عودى.

واصل محمد طوافه حتى أتمه، ثم خرج إلى الخلاء وهو مهموم؛ كانت ساقاه تقودانه إلى الغار، مرهق النفس والبدن، على رغم ما قاله له ورقة، فلعله لم يتخلص من الشك الذى يؤرقه، ويطارده بأنه ممسوس، وأن ما قيل وما سمع فى الغار، هو من وسوسة شياطين الشعر، وهذا ما كان يكره أن يصير إليه، فما نهج نهج جده عبد المطلب، ونهج عمه أبى طالب من صعود إلى الغار، إلا فرارا من تلك الحياة النكراء التى يحياها قومه، وبحثا عن طريق للعبادة الحقة بلا أصنام أو شرك، عبادة

لخالق السماوات والأرض؛ أما أن ينتهى به سعيه إلى أن يصير: كاهنا أو شاعرا، فإن الموت لأهون من ذلك.

كان قد تسلق الجبل، مرتفعا عن الأرض ارتفاعا كبيرا، وقد تشبثت أصابع قدميه بمنزلق صخرة، تتربص الهاوية بمن يتقدم فوقها خطوة واحدة؛ هنا ظهر الملك يناديه مطمئنا، مهونا عليه:

- يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

داخلت نفسه طمأنينة جعلت قدميه تنسحبان متراجعتين، وعاد أدراجه ينزل الجبل، ولكن الملك عاود نداءه:

- يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

قطع طريق الهبوط وكأنه يطير، وحين استقر على أرض الوادى، رفع بصره ينظر إلى من يخاطبه فوجد الملك يملأ السماوات والأرض محيطا به، فلم يحتمل هول الرؤية وخر مغشيا عليه، راح الملك يضمه إلى صدره مخففا عنه، وليذهب ما أصابه من روع.

٧

حين أفاق أسرع عائدا إلى داره ترجف أعضاؤه، ولما بصرت به خديجة مصفر اللون، مضعضع البدن، يكافح حتى يستطيع الوقوف فلا يسقط، هلع فؤادها، وأقبلت عليه تغطه بشدة، وكأنها تود لو تفتديه بنفسها، وهى تسأله:

- ما بك يا ابن العم؟.

قال محمد وأسنانه تصطك فى عنف، محاولا بكل ما تبقى لديه من جهد أن يسيطر على مخارج الكلمات:

- زملونى.. زملونى.

أسرعت خديجة تدثره بخمارها وبكل ما وقعت عليه يداها، وأنامته فى فراشه، وهو لا يكف عن الارتجاف، وهى على التصاقها به، مهونة عليه ما يجد من شدة.

وهدأ جسد محمد، واستكانت نفسه، وامتلأ امتثالا لما نزل عليه، فالأمر جد لا هزل، فلا شك ولا ريبة، فهذا الذى ألقى عليه ليس من الشعر فى شىء، بل هى أوامر إلهية تدعوه إلى طريق العبادة الصحيحة، وإلى هجر الأوثان لأنها من أعمال الشيطان، وإلى الطهر والتطهر من أدران الشرك والجاهلية، والبعد عن النجس فى الملبس والخلق؛ وهذا ما كان ينشده ويسعى إليه منذ شب بين أهله ورأى ما هم عليه من شرك عافته نفسه، ورفضه عقله، ففيم يفعلون تقليل لشأن العقل، إن لم يكن فيه إلغاء له:

فهل هنالك عاقل يجعل إلهه من صنع يديه؟!.

ثم ها هو ذا مخاطب من الله تعالى، بالحال التى كان عليها من شك وخوف وهلع، مطالب بأن ينضو

عنه حال التدثر العقلى: الذى يملأه شكا فى الحقيقة الجديدة، وتخوفا من مواجهة التجلى الأعظم لله الذى خلق الإنسان من علق، وعلمه ما لم يكن يعلم: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة القصص: الآية ٨٦].

فسبحان الله الرحمن الرحيم، الذى شملت رحمته عبده محمدا فنزل عليه الكتاب، وما كان يدرى ما الكتاب، ولا الإيمان.

نضا عنه غطاءه، استقام جالسا، نهض وقد ملىء نشاطا وإقبالا على الحياة، صادف خديجة فى طريقه، أخبرها بما أنزل عليه، هللت خديجة لما سمعت، وللحال الذى أصبح عليه محمد من إشراق ملأ الوجه نورا، ومن فرحة بدت فى نبرات الصوت الواثق وقد زايلته الرعشة، وذهب عنه التردد.

تطهر مغتسلا، وتبعته فتطهرت هى أيضا، وخرج إلى الكعبة، ليطوف شاكرا لصاحب البيت ما أنعم به عليه، بينما اتجهت خديجة إلى أركان بيتها تزيل ما بها من أوثان.

وأوحى إلى محمد أن يشهد أن: لا إله إلا الله.

واستقر اليقين، وظهر الحق الذى كان ينشده هو والذين ملأ الشك قلوبهم فيما كان آباؤهم عليه:

- لا إله إلا الله.

وهل يعقل حقا أن يحكم كل هذا الكون إلا بإله واحد؟!.

واحد، أحد، فرد، صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

ثم أقرأه جبريل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الفاتحة - الآيات ١: ٧].

يا لله..

ما كل هذه الرفعة التى تحملها كلمات رب العالمين؟.

قدرة ورحمة، إنها تبيان لعظمة الخالق، ثم إتاحة للعابد أن يعوذ ويستعين به، طالبا الهدى وسبيل الرشاد، نائيا بنفسه عن طريق الضالين، من المغضوب عليهم لشركهم، وعدم اتباعهم لتعاليم الله.

عاد إلى خديجة مفعم النفس بالأمل فى أن رحمة الله قد أدركت العباد، رتل عليها ما تعلم، ثم أشهدها أن: لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فشهدت.

٨

كان من عادته أن يستيقظ مبكرا ليبدأ يومه بالطواف حول الكعبة، على رغم قيامه الليل ذاكرا شاكرا لله ما اختصه به من نعمة الإسلام، ولقد أضاف إلى عادته جديدا، هو قراءة القرآن فى ركن قصى، بعيدا عن الأصنام وعن آذان المتلصصين، وحين ينتهى يخرج إلى الخلاء متعبدا متأملا فى قدرة الله.

وذات صباح أشـار إليه جبريل أن يتبعه، فسـار معه ما شـاء الله، ثم نكـت جبريل الأرض بقدمه فتفجـرت منهـا عين توضأ من مائها، ومحمد يتبعه فيفعل مثلمـا يفعل، وعلـمه جبريل الصلاة، فصليا ركعتين مستقبلين الكعبة، وحين انتهيا عاد محمد إلى الكعبة فاستلم الحجر الأسود وطاف بالكعبة سبعة أشواط، ثم ذهب إلى داره فعلم زوجه الوضوء والصلاة، فلما انتهيا، جاءه جبريل وقال له:

– أقرئ خديجة السلام من ربها.

التفت النبى إلى زوجته، وقال لها:

– يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك.

قالت الصديقة رضى الله عنها:

– الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

وحين حل الليل..

صلى به جبريل مرة ثانية، فشرعت الصلاة مرتين بالغداة والعشى.

ومع تبدد خيوط الظلام، وقف محمد يصلى مع أول من صدقت به، فى ركن من الدار اختاراه ليكونا بعيديـن عـن الأعين، ولكن على بن أبى طالب رآهما، ولقد دفعه الفضول لأن يقف متأملا ما يحدث، مستمعا لما يقال، ثم تقدم يسأل دهشا:

– ما هذا يا محمد؟!.

قال النبى ﷺ:

– إنه دين الله الذى اصطفى لنفسـه، وبعث به رسـله، فأدعوك إلى الله وحده لا شـريك له، وإلى عبادته، والكفر باللات والعزى.

قال على، وقد أذهله ما سمع:

– هذا أمر لم أسمع به من قبل، فلست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب.

ولأن النبى كان لا يريد لأمره أن يشيع فى مكة أو فى غيرها، طلب من على أن يكتم الأمر ولا يذيعه، فلا قسر، فليست هنالك ضرورة تلزمـه بأن ينضم إلى الدين الجـديد.

كتـم «على» الأمر، فلقد كان يحـب محمدا، ولقد جعله حدبه عليه، أقرب الناس إلى قلبه من بعد أبـى طالـب، وكان محمد تام الثقة فى كتمان على للأمر، فعلى رغـم صغر سـنه فإنه يتميز عن أقرانه برجاحة العقل، والرزانة.

ولكـن عليـا، وإن كتـم أمر دين محمد الجديد، إلا أنه لم يسـتطع أن يبتعد بفكـره، ولا بوجدانه عما سمع..

الله الرحمـن الرحيـم.. هـذا هو إله محمد، إنـه إله أولى بأن يحب، وأن يعبـد، ثم إن محمدا لم يدعـه إلى أمر يسـىء، منذ انتقـل من بيت أبيه ليعيش معـه، فمحمد بحق مثلمـا قالت عنه قريش: الصادق.. الأمين.

حين قر قرار على، لم يطق صبرا، وخرج يبحث عن النبى، ثم وقف بين يديه يرتعد وجدا وقال:

– ماذا عرضت على بالأمس يا محمد؟.

قال النبى ﷺ :

– تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنـداد.

قال على:

– أشهد.

وأصبح الذين يصلون فى دار خديجة ثلاثة ،ولكن الرابع انضم إليهم سريعا، فحين رأى زيد – الذى اختار محمدًا له أبا – أباه وهو يصلى، ويرتل كلاما يأخذ بالألباب، اجتاح كلام الله عقل الفتى المقبل على الشباب وزلزله.

ويطلـب زيـد من النبى أن يزيده علما بدينه الجديد، ويجلس بين يدى النبى يسـتمع، فلم يقم من جلسته إلا وقد شهد بأن لا إله إلا اللـه؛ ولا عجب فى أن يحدث هذا لصبى اعتقه محمد من العبودية، وأنزله منه منزلة الابن من الأب.

وما كان زيد ابنا لمحمد، ولكنه ولد بالشام من أب حر، ومن أم حرة، واختطفه تجار الرقيق، وجاءوا به إلى مكة وباعوه ضمن من باعوا من العبيد لحكيم بن حزام، وحين عاد حكيم من رحلة الشام، زارته عمتـه خديجـة مهنئة له بالعودة، فخيرها فى أن تنتقى من تريد مما عنده من عبيد، تقديرا لزيارتها، فاختارت زيدا لأنه كان أصغرهم سنا، وأحسنهم وجها، وكان اختيارها لنية بيتتها.

فلما عادت إلى دارها وهبته لمحمد، تسـرية عنه بعد أن فقدا ولديهما: عبد الله، والقاسـم، وحين عثر الأب الحقيقى على ابنه فى كنف النبى، بعد سنين عديدة قضاها متنقلا من بلد إلى بلد، لا ييأس ولا يقنط: واستمع محمد لقصة الأب منصتا فى رقة من ذاق لوعة الفقد، ورأفة بالأب، خير محمد «زيدا» فى أن يختار أيًا من الأبوين شاء، وقال له:

– يا زيد هذا أبوك حارثة بن شرحبيل، إن شئت فأقم عندى، وإن شئت فانطلق مع أبيك.

وجاء قرار زيد سريعا، وحاسما، وبلا تردد:

– بل أبقى معك يا محمد، فلقد أعطيتنى من الحب والرحمة ما لم أجده عند أحد غيرك.

وصحب محمد زيدا إلى مجالس مكـة، وأشهدهم أن زيدا قد صار ابنا له.

وهكذا انتظم المسلم الرابع فى الصلاة.

٩

كانوا يتكتمون أمرهم، فيصلون مع الشـروق فى الكعبة، ثم يسـتخفى النبى مع «على» فى الجبل ليصليا العشاء معا، فلقد كانت قريش لا ترفض صلاة الضحى، ولا تعجب منها.

ولكن هل استطاع تكتمهم للأمر أن يمنع تفشى خبر دينهم بين الناس؟.

كلا.. فمن المحال أن يتحقق مرادهم، لأن مكة كغيرها من المجتمعات الصغيرة، يحب أفرادها أن يتجسسـوا على ما حولهم من أخبار ووقائع، لتكون محور أحاديثهم، وشـاغلا يجدد فكرهم، ويلهب خيالهـم، فمجال الحيـاة اليومية ضيق محدود؛ كما أن طبيعة البناء العمرانى تتيح للجار أن يشـب

قليلا فيكشف ستر جاره، وأن ينصت بأذنيه فيسمع كما يريد، وأن يتجسس فيلمس ما يود أن يكشف ستره؛ فسكنى مكة الخيام والدور المبنية من حجارة الجبال، المسقوفة بسعف النخيل، أما أبواب الدور فهى ستائر من صوف الجمال أو الأغنام.

ولقد ساعد على سرعة الذيوع ما أعلنه ورقة بن نوفل منذ سمع من النبى بأمر الناموس الذى جاءه، من أن محمدا هو أحمد الحامد لله، وأنه هو الرسول الخاتم، ثم راح يصيح فى غدوه ورواحه، متوعدا القرشيين بزوال دولتهم، وبالعذاب إن هم لم يتبعوا محمدا.

كما كانت خديجة كلما سئلت عن أمر الأمين، لم تأخذ حذرها، فتعلن حقيقة ما جاءه من أمر السماء.

وبسبب هذا جميعه، سرعان ما تسامعت مجالس قريش بأمر الدين الجديد، وراح القرشيون يقللون من شأن النبى، ويشيعون أنه ساحر أو مسحور تخاطبه شياطين الشعر، وأن أمره سينتهى إلى التعقل وهجر ما يتوهم، كما انتهى أمر من سبقوه وتحنفوا هاجرين اللات والعزى وما عبد الآباء.

لذلك كانت فرحة سادة قريش لا توصف حين سمعوا بمرض النبى، وبانقطاع الملك عنه، وقالوا شامتين:

- لقد قلاه ربه.

ولكن فرحتهم لم تدم، فلقد عاد جبريل محمدا ﷺ يمسح عنه الألم النفسى الذى عاناه نتيجة تخوفه من زوال نعمة الهداية عنه، ورتل عليه من سورة الضحى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [سورة الضحى - الآيات ١ : ١١].

فها هو ذا الخالق ينصفه، وينصره، ويجتبيه، وينبهه إلى أن أمور الدنيا يجب ألا تأخذ من اهتمامه إلا النذر اليسير:

فالآخرة خير لك ولأمتك، وأكثر دواما، ثم يذكره بفضله الذى شمله به ولا زال، منذ كان يتيما، ولأن محمدا عارف بهذه النعم الربانية، فاهم لها، فهو يصل الليل بالنهار متعبدا قانتا شاكرا لله.

قالت له خديجة حين قرأ عليها سورة الضحى:

- والله.. إن ربك لن يتخلى عنك أبدا.. أليس هو سبحانه من أرسل إليك الوحى بقوله: ما ودعك ربك وما قلى؟.

واشتد الوحى..

وتتابع نزول القرآن.

□□□